الأسرة الإنجليزية

للكاتبة الانجليزية سيسلى هاملتون

من كتابها " المرأة الانجليزية " ترجمها ولخصها عن الانجليزية الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

الأسرة الصغيرة :

تغير البيت الانجليزى منذ بداية القرن العشرين تغيرا أثر كثيرا فى حياة المرأة الانجليزية . يرجع بعض هذا التغير إلى أن نسبة المواليد هبطت فى انجلترا ، كما هبطت فى جميع أنحاء العالم المتمدين خلال السنين الخمسين الماضية . فأدى هذا إلى نقص فى حجم الأسرة وقلة فى عدد أطفالها ، وصارت نسبة الأطفال إلى مجموع السكان فى انجلترا أقل منها فى سائر أوربا إذا استثنينا السويد .

تتناقض الآراء فى هذا — فى قلة الولد وصغر الأسرة — تناقضا عنيفا ، فثمة من يرى فيه الخطر يتهدد كيان الأمة وينذرها بالوهن والتخاذل ، وثمة من يرى فيه الخير لقطر كانجلترا كثيف السكان شديد الازدحام ، لا تتيسر فيه فرصة العمل لكل قادر عليه من الرجال والنساء رغم تنوع المرافق ووفرة الثراء .

على أن ما يعنينى هنا أن أبحث أثر " الأسرة الصغيرة " فى الحياة العائلية . فأرى ، أول ما أرى ، أن انخفاض نسبة المواليد صحبه انخفاض فى نسبة الوفيات ، وعلى الأخص فى نسبة الوفيات بين الأطفال . لم كان هذا ؟ لا يمكن أن نعلل هـذا بأن أمهات اليوم أكثر حبا لأولادهن ، وأشد عناية بتنشئتهم ، من أمهات الأمس . وإنما الواقع الذى يجب أن نقرره هو أن الوالدة الحديثة أقدر وأمهر من الوالدة القديمة فى تربية طفلها والحفاظ على حياته ، وأن قلة الولد تيسر لها هذا العمل قدر ما كان يعسر على أمها أو جدتها الولود .

قال احد رجال التربية : إن هذا العصر هو عصر الطفل . صدق فى هذا ، فقد صارت تربية الطفل فى كل شعب متمدين فرعا من فروع الثقافة العامة ، وشأنا من شؤون الاصلاح الاجتماعى . صارت الفتيـات يتلقين فى مدارسهن على مدرساتهن ، والسيدات يتلقين عن طريق الكتب والصحف والراديو ، من وسائل الارشاد والتوجيه ما يمكنهن من أن يرعين أطفالهن رعاية رشيدة مثقفة ، ذات قواعد خاصة وذات أغراض معينة .

لم تعد الأم الحديثة تربى طفلها — كما كانت تربيه أمها وجدتها — وفق ما تهديها وتوجهها غريزة الأمومة ، مضافا إليها ما تكسبه من التجارب والدروس . كلا ؛ بل صارت الهيئات الاجتماعية المختلفة تهيىء لها الوسائل العلمية لتربية طفلها منذ أن تحمله جنينا إلى أن يشب يافعا .

جلست ذات مرة فى دار من دور " الترحيب بالأطفال " المنتشرة فى أرجاء انجلترا ، فرأيت وفدا من هؤلاء الضيوف الصغار تتلقاهم الممرضات لقاء البشر والترحيب ، فيزنّ أجسامهم و يفحصن أبدانهم ، ثم تذهب أمهاتهم إلى طبيب الدار يعرضن عليه أطفالهن فإذا انتهين من استشارته عما يهمهن من أمور الأطفال اجتمعن حول مائدة كبيرة فتناولن الشاى والحلوى بينما الطبيب يلقى عليهن محاضرة يسيرة شائقة عن صحة الوليد ورعاية الطفل .

كانت هذه الدار إحدى ثمانى عشرة دارا فى مدينة واحدة من مدن انجلترا المتوسطة ، وفى انجلترا مئات من هذه الدور التى لا تحمل الخزانة العامة كثيرا أو قليلا من نفقاتها ، إذ الفضل فى إنشائها و إدارتها يرجع إلى الهبات السخية التى يتبرع بها الخيرون من الأثرياء .

ليست مهمة دور " الترحيب بالأطفال " هذه مقصورة على فحص الأطفال ونصيحة الأمهات ؛ فمنها ما يقيم من حين إلى حين معارض يفد إليها الناس ليروا خير غذاء تتناوله الحوامل تقوية لهن على مشاق الحمل والولادة ، وخير غذاء يقدم للأطفال تنمية لخلاياهم الناشئة وتقوية لعظامهم الغضة ؛ وهى تراعى فى اختيار ما تعرض من ألوان الطعام أن تكون ميسورة لعامة الناس مع اشتمالها على أكمل عناصر الغذاء . ومنها دور تستضيف أطفال الحى يوما أو يومين من كل أسبوع ؛ فيودعهم أمهاتهم فى كفالة الممرضات حيث يمضون ساعات اليوم يمرحون و يتأرجحون بين الزهور والشجيرات ، وعلى الأعشاب والرمال ، وما إلى ذلك من لهو الطفولة ونشاطها .

فهل لنا أن نعجب إذًا حين تنبئنا الإحصاءات أن مأساة موت الطفل صارت اليوم أقل وقوعا مما كانت فى عهد أمهاتنا ؟

إن أزواج اليوم ، شبانا وفتيات ، يقدّرون مسألة الأبوة والأمومة تقديرا جدّيا : فلم تعد الفتاة التى ترجو أن تكون أما لطفل يوما ما تنتظر مجىء هذا الطفل ثم تمرن وتتدرب على تنشئته وتربيته ، بل صارت تتأهب للقاء هذا الطفل حتى قبل أن تتزوج بما تقرأه وتدرسه من شؤون التربية والتمريض . لقد نشأت حرفة جديدة ، هى حرفة الأمومة ، وبفضلها أمكنها فى ربع قرن أن تنقص وفيات الأطفال بمقدار ٥٠ ٪ فصارت فى سنة ١٩٣٠ نصف ما كانت فى سنة ١٩٠٥ ولم يكن هذا التقدم العظيم فى حياتنا العائلية مقصورا على طبقة دون طبقة ، ولم يكن حظ الفقير منه أدنى من حظ الغنى ، بل شمل وأفاد جميع الأوساط .

كذلك من المزايا المشهودة فى هذه "الأسرة الصغيرة" أن الأم الحديثة تستطيع أن تكون صديقة ورفيقة لطفلها أو لطفليها عند ما يشبان عن دور الطفولة، على نقيض جدتها فى العصر الفيكتورى التى كانت تنجب ثمانية أو تسعة أطفال ، فتظل منذ سن الزواج الى سن اليأس فى سلسلة متصلة من الحمل والوضع والرضاع والتمريض ، فلا تخلو لها فرصة طويلة تصادق فيها أطفالها الذين يكبرون ، ويتعلمون من أمهاتهم صداقة تؤنسهم وترشدهم وتهديهم .

تستطيع الأم الحديثة أن تشارك ابنها بعض ميله و بعض نشاطه حين يترك البيت الى المدرسة، ثم حين يخرج من المدرسة الى الحياة . ومعنى ذلك أن هذه الأم صارت أدنى إلى قلب ابنها مودة وقربا ، وأوثق بحياة ابنها وشيجة وربا طا ، من تلك الأم القديمة التى كانت لا تكاد تفرغ من رضاع وليد حتى تبدأ فى حمل سواه ...

لست أريد أن أقول إن حب الأم لابنها زاد فى القرن العشرين، وإنما أقول إنه حب من نوع جديد : حب فيه صداقة تقرب بين جيل الأم و بين جيل ابنها ، فتؤلف بين تفكيرهما وشعورهما وميولها .

التدبير المنزلى :

نشاهد تطورا ثانيا فى الأسرة الانجليزية مرجعه إلى أن نساء الطبقة الوسطى صرن أمهر مما كن منذ عشرين أو ثلاثين سنة فى الأعمال المنزلية .

كانت السيدة الانجليزية فيما مضى تكاد تجهل كل الجهل فن الطهى، وكان المطبخ فى عامة البيوت المتوسطة منطقة تختص بها الطاهية وحدها. فكانت الفتاة تنشأ فى هذه البيوت كأمها لا تدرى شيئا من صنع الطعام الذى تزدريه سائغا شهيا، ولا سيما أن مدارس البنات لم تكن تعلمها كثيرا من أمر المنزل وما يتطلبه من عمل وتدبير .

كانت الأعمال المنزلية إذن من اختصاص طبقة معينة يرتزق نساؤها من ممارستها كمربيات أو طاهيات . فكانت الفتاة فى الطبقة الوسطى تقدم على الزواج وهى لا تدرى من أعمال البيت وتدبير ميزانيته كثيرا ولا قليلا ، اعتمادا على امرأة من تلك الطبقة الفقيرة تستخدمها فتكفيها مشقة العمل ومؤونة التدبير .

ما الذى أدى الى تغيير الأمر فصارت السيدة الحديثة تعتمد على نفسها فى تنظيم بيتها ؟ أدى الى ذلك إيثار الأسر فى الوقت الحاضر سكنى "الشقق الصغيرة" على سكنى المنازل الكبيرة .

كانت الأسرة الانجليزية فيما مضى تؤثر أن تستقل بمسكنها ، تمشيا مع طبيعة الرجل الإنجليزى الذى يجنح الى العزلة و يميل الى الانفراد . وكان هذا المنزل المستقل يتفاوت ، حسب ثراء الأسرة التى تسكنه، بين الكوخ المتزوى الضئيل والبيت المؤلف من عدة طباق.

وكثيرا ما كانت الأسرة التى لا تتجاوز سبعة أو ثمانية أفراد تسكن بيتا شاسعا فسيحا فيه عشرون حجرة أو ثلاثون ، ذلك أن مثل هـذه الأسرة كان يتبعها جمع من الخدم والحشم يشغلون جانبا كبيرا من البيت . أما اليوم فقد قسمت مثل هـذه البيوت الى " أدوار " أو الى " شقق " يسكنها عدد من الأسرات . وأخذ الناس يعدلون — سواء فى المدن الكبرى أو فى الضواحى النائية — عن بناء تلك المنازل المستقلة ، ويقبلون على بناء العمائر الضخمة التى تشمل عشرات بل مئات من المساكن الصغيرة .

انتشرت هـذه العمائر فى السنين الأخيرة انتشارا كبيرا وأقبل الناس على سكناها أشد الاقبال ، وذلك لسببين : أولهما ، صغر حجم الأسرة فلم تعد ثمة حاجة الى البيت المستقل الكبير ، وثانيهما ، قلة الخدم وزيادة أجورهم منذ أخذت الصناعة الحديثة تجتذب اليها الصبيان والفتيات والنساء ، فآثر الناس المساكن الحديثة الضيقة حيث لا يقتضى العمل فيها جهدا ونصبا .

هذه المساكن الصغيرة أرغمتنا على أن نتنزل عن كثير من العادات المنزلية التى نشأنا عليها وأن نروض أنفسنا على تقاليد أخرى كان آباؤنا ينفرون منها ، فمن ذلك أن حملت المرأة على أن تعتمد على نفسها ، لا على خادمها ، فى تدبير شؤون بيتها . وقد صار هذا العمل أيسر وأنفع مما كان ، بفضل كثير من الأدوات المنزلية الحديثة التى تعفى المرأة من كثير من العمل المجهد . وكان دخول الكهرباء الى البيوت نعمة على ربباتها ، فقد حلت محل أيديهن فى كثير مما كان يجهدهن من طهى الطعام وإعداد الشراب وكى اللباس وتدفئة المساكن وغير ذلك .

على أنى لا أريد أن أقول إن المرأة الانجليزية الحديثة برئت كل البرء مما كان يعاب على أمها من جهل بشؤون الطهى وتدبير المنزل . كلا ، فما زلنا شعبا فقيرا فى الطاهيات البارعات وفى الطهاة المجيدين . ومن المؤسف أن نظل إلى اليوم مطاعم الدرجة الأولى فى المدن يديرها الأجانب غالبا . ومرجع هذا فيما أرى إلى أن تعليمنا الثانوى لا يعنى العناية الكافية بشؤون الحياة اليومية قدر عنايته بتلك الدروس النظرية التى يحشو بها الرءوس حشوا قلما ينفع ويجدى ...

لو كان لى الأمر فى التعليم لفرضت دروسا فى التدبير المنزلى لا على الفتاة وحدها ، بل على الشبان كذلك . فليس من شبابنا ورجالنا من يستطيع أن يغسل ملابسه ويرقأها ، أو أن يعد لنفسه إفطارا أو عشاء ، رغم أنه غالبا ما يضطر إلى أن يقضى فترة من حياته دون زوجة ، وكثيرا ما يقترن بزوجة تعمل خارج البيت . فمن حقها أن تستعين به فى بعض أعمال البيت ، كما يستعين هو بها فى زيادة إيرادهما ...

مع هذا كله فان فتيات الطبقة الوسطى الانجليزية اللاتى يصلحن " ربات بيوت " زاد عددهن كثيرا منذ بدء القرن الحالى ، فصار الرجل الحديث يقدم على الزواج وهو واثق أنه

سيجد فى بيته زوجا تستطيع أن تعد له وجبة سائغة مغذية بأقل نفقة ممكنة ، وذلك بفضل معاهد التدريب المنزلى التى تقبل عليها الفتيات قبل زواجهن بكل الاقبال . ومرجع هذه العناية بأمر الطعام إلى أمرين :

(أولهما) انتشار الدعاية الصحية التى عرفت الناس بألوان الطعام المغذية الجيدة ، ونبهتهم إلى أهميتها فى تكوين الجسم وتجديد الصحة وبث الحركة والنشاط .

(ثانيهما) قلة الخدم رغم ارتفاع أجورهم ، فصارت ربة البيت التى لاتستطيع أن تدفع أجرا عاليا جدا تستأجر به طاهية ، ولا يتيسر لها فى الوقت ذاته أن تعتمد هى وزوجها وأولادها على المطاعم العامة — صارت تعتمد على نفسها فى إعداد الطعام ؛ فاذا كانت المدارس قصرت فى هذا الباب تقصيرا معيبا ، فإن الضرورة أصلحت الأمر واضطرت المرأة إلى أن تجرى شؤون بيتها بيديها وحدهما .

الخادم والعاملة :

نتدرج من هذا إلى النظر فى تطور ثالث طرأ على حياة المرأة الانجليزية الحديثة ، وهو انصرافها كل الإنصراف عن أعمال الخدمة المنزلية رغم ما فيها من مزايا جزيلة .

أخبرتنى إحدى "مديرات" البيوت الريفية العريقة فى انجلترا أن هذه البيوت التى شادتها الإرستوقراطية العتيدة منذ قرون عديدة سوف توصد أبوابها عما قريب . وعللت ذلك بأمر واحد ، هو ما تلاقيه هذه البيوت من المشقة فى تهيئة ما يلزمها من الخادمات البارعات . ذلك أن الفتيات والنساء صرن ينفرن من الخدمة المنزلية لأسباب شتى ، منها أن الخادم قلما يتيسر لها جو الصداقة أو الزمالة ، وهو عنصر من أهم عناصر الحياة الممتعة الطيبة ، تعيش الخادم فى شبه عزلة لا تستمتع فيها بمتعة الصداقة ، إذ لا سبيل إلى مصادقة سادتها وهم أرقى منها مرتبة وتفكيرا ، ولا سبيل إلى مصادقة مثيلاتها الخادمات ، لأن كلا منهن منصرفة نهارها وليلها إلى العمل فى بيتها . . . هذا العامل النفسى ينفر الفتاة الحديثة من أن تكون خادما ، رغم ما تتقاضاه الخادم من الأجور العالية .

أما القصور الكبيرة التى تستخدم عددا كبيرا من الخدم والحشم فيتهيأ فيها جو الصداقة بين أفراد هذه الطبقة المتماثلين ، ومع هذا فانها تجد مشقة فى إيجاد ما يلزمها من الفتيات والنساء . لقد مضت تلك الأيام التى كانت تحسد فيها العائلة الريفية المتوسطة إذا وفقت إحدى بناتها إلى العمل فى " القصر الكبير " الذى يسكنه سيد الاقطاعية . وصارت هذه الفتاة تؤثر الذهاب إلى المدينة حيث العمل أوفر ، والحياة أمتع ، رغم ما فى المدينة من مشاق وصعاب .

فهذه القصور الريفية على بذخها وفخامتها تنقصها "الحياة" النابضة الحافلة التى يستمتع بها الفتيات والنساء فى المدن الكبرى ، حيث الشوارع والميادين ، حيث السينمات والمسارح ، حيث الأندية والحفلات ، حيث المتاجر والمعارض ، حيث الأضواء والسيارات والأزياء وغيرها من مظاهر الترف والزينة والبهاء . لم تعد الفتاة تستطيع أن تقاوم رغبتها فى هذه الحياة الصاخبة العنيفة ، حتى أن ٩٩ ٪ من الفتيات يفضلن العمل فى المصانع والمكاتب على العمل فى البيوت والقصور . ومع أن المربية أو الطاهية أعلى أجرا وأحسن مسكنا وأكثر راحة من العاملة فى مصنع أو الموظفة فى متجر ، إلا أن ايثار الحرية والاستقلال ، والنفور من القيود والتقاليد ، يدفع بالفتيات دفعا لا يقاوم من القرى إلى المدن ، ومن الخدمة فى البيوت ، إلى النزول فى ميدان الأعمال .

بل إن العمل فى الصناعة الحديثة ممل ثقيل ، لأنه يفرض على العامل أن يكرر عملية تافهة طوال ساعات عمله ، يوما بعد يوم ، وشهرا تلو شهر ، وعاما فى إثر عام ... فى حين أن عمل المربية أو الطاهية يمتاز بألوان من التنوع ، والتفنن تجعله ممتعا محبوبا ، ومع هذا فإن الفتاة تؤثر العمل أمام جهاز صناعى على تربية طفل أو إعداد مائدة . ذلك أن العمل الأول محدد بساعات معينة إذا انقضت صارت الفتاة حرة طليقة إلى الصباح التالى ، كما أن فى العمل الأول إجازة يوم من كل أسبوع يمكن أن تتنهزه لقضاء وقت طيب مع بعض زميلاتها أو أصدقائها .

الى جانب هذا نتذكر أن فتاة المصنع فى انجلترا صارت فى زيها وأناقتها تعدل أية سيدة وافرة الثراء . انقضت الأيام التى كانت فيها هذه الفتاة تتدثر بشال من الصوف السميك تجعله قبعة ومعطفا معا ، وصارت الفتاة الآن تلبس القبعة الأنيقة والمعطف البديع . وهذه حسنة من حسنات الإنتاج الصناعى الذى ألغى الفوارق بين الطبقات فى أمر اللباس ، بما وضعه فى أيدى أوساط الناس من القماش البديع والزى الجميل فصاروا لا يفرقون عن الأثرياء والمترفين كثيرا .

وكذلك الأمر فى زينة النساء ، فلم تعد الشعور الموجة والأظافر الملونة مقصورة على ذوات الثراء ، بل صارت تحلى الرءوس والأنامل من فتيات المصانع والمتاجر والمكاتب .

هذا كله أدى الى ارتفاع أجور العاملات حتى ضاهت أجور الرجال بعد أن كانت تنقص عنها كثيرا . وهذا خير . فكل ارتفاع فى أجور العمل يؤدى الى ارتفاع فى مستوى الحياة ، أى الى الارتقاء فى درج المدنية التى تحول كثيرا من الكماليات الى ضروريات .

هذه صورة وجيزة عن تطور المرأة الانجليزية والأسرة الانجليزية فى العهد الجديد ، وهو تطور ملىء بالدروس والمظاهر التى يجدر بكل مفكر اجتماعى أن يلقى إليها فكره طويلا ، فسيسرى مثل هذا التطور على كل امرأة وكل أسرة ، فى كل قطر وكل بيئة .